جماليات التأويل العرفاني للقرآن العظيم
قراءة في كتاب المواقف للأمير عبد القادر الجزائري

رشا روابح
جامعة باتنة (الجزائر)

ملخص:

تأتي هذه الدراسة في سياق حاجة المسلم إلى التعرّف على مختلف المناهج التفسيرية والتأويلية للقرآن الكريم، خاصة في هذا العصر الذي يشهد أنواعا وأشكالا من القراءات الحداثية للقرآن الكريم التي أزالت عنه ثوب القداسة وعادلته بالنصوص البشرية ففقد قيمته الروحية والمعرفية والقيمية والجمالية لذا تسعى هذه الدراسة إلى التعرف على طريقة العارفين في تفسير القرآن الكريم والتعامل معه، وإلى تذوق الجماليات التي تفرّد بها التأويل العرفاني للقرآن العظيم وذلك من خلال تجربة الأمير عبد القادر الجزائري التي ضمّنها كتابه المواقف في بعض إشارات القرآن إلى الأسرار والمعارف.

الكلمات المفتاحية: الأمير عبد القادر، التفسير الإشاري، المواقف.

The Aesthetics of the Gnostic Interpretation of the Quran: A Reading in the Book Al-Mawaqif by Emir Abdelkader.

Summary

This study comes in the stream of a Muslim's need to know the different ways to interprete the holy Quran especially in this time which witnesses many kinds of contemporary readings of the holy Quran which have removed its holiness and made it equal to the human texts and lost its spiritual, valuable and beautiful value.

Therefore, this study aims to understand the method used by the ones who know how to interprete the holy Quran and how to deal with it and to taste the beauties which specify the knowlegebal interpretation of the holy Quran through the experience of El Amir Abdelkader Aldjazairi detailed in his book : The Positions in some Quranic signs to the secrets and knowledge "ELMAWAKIF".

Keywords: Emir Abdelkader, the allegorical interpretation, the traditional interpretation, “Al-Mawaqif”.

مقدمة

لا ريب أن علم التفسير من أجل العلوم من حيث تعلقه بكلام الحق تعالى، لذلك تكثّر علماؤه، وتنوعت مناهجه، وتعددت مصنفاته، ليتعاون علماء الأمة على تفسير كتابهم، كلٌّ بحسب اختصاصه العلمي وهمّه الحضاري أو قوة استنباطه للمعاني العميقة وشعلة فهمه لدقائق النص، فنتج عن ذلك عدة أنواع للتفسير القرآني، منها التفسير بالمأثور، وبالرأي، والتفسير الفقهي، واللغوي، والعلمي، والاجتماعي، وغيرها. وفي سياق هذا التنوع يندرج التأويل الإشاري أو الرمزي أو الصوفي أو العرفاني أو الذوقي، كلها تسميات لمسمى واحد، وهو منهج علماء الصوفية في قراءة النص القرآني وفهمه وتفسيره والتفاعل مع آياته.

هذا النوع الأخير من التفسير، الذي يَعبُر من خلاله الصوفي الذي يعيش تجربة الوحي المتجدد حجاب الأحرف والكلمات المخلوقة إلى المعاني الأزلية الأبدية والمتجددة مع كل نَفَس، يفتح للقارئ

أفاقا رحبة مع النص القرآني، ويكشف له عن مكنونات جمالية ومكنوزات جلالية غير متناهية لعدم تناهي عجائب النص نفسه من حيث المعنى.

ومن بين الصوفية الذين منحوا للقارئ فرصة الغوص في هذا الجمال والجلال القرآني، هو العارف بالله الأمير عبد القادر الجزائري الحسني من خلال كتابه "المواقف في بعض إشارات القرآن إلى الأسرار والمعارف"، والذي أشار من خلال عنوانه أنه مواقف ومحطات مع النصوص القرآنية وما تشير إليه من أسرار ومعارف إلهية لا يستشفّها من يتوقف على ظواهر النصوص، وإن اعتكف على تلاوتها وأدمن النظر والتدبّر فيها.

والمتأمل في كتاب المواقف يلمح منذ الوهلة الأولى الحضور البارز للنصوص المقدسة، خاصة القرآنية، حيث نجد من بين 372 موقفا، أكثر من 240 موقفا يفتتحه الأمير بنصوص دينية، منها أكثر من 190 موقفا يفسر فيه آيات قرآنية بالطريقة الإشارية. ما يجعل مذهبه العرفاني كله نابع من النص المقدس، وكل المسائل والتأملات التي رصّعت كتابه ناتجة عن تدبّره للنصوص المقدسة والتفاعل معها. الأمر الذي يؤكد تغلغل القرآن الكريم في كل ثنايا حياة الصوفي.

وتتنوع تجارب العارفين في التعاطي مع القرآن الكريم بحسب تنوع التجارب العرفانية نفسها، خاصة من قِبل أصحاب التجارب الكبرى الذين ولجوا ملكوت السماء بولادة جديدة كالأمير عبد القادر. ومن هنا تأتي أهمية الموضوع، كونه يسهم في إبراز الرؤية العرفانية للقرآن الكريم، وذلك من خلال إطلالة على مواقف الأمير عبد القادر الجزائري.

وتهدف هذه الدراسة إلى إبراز ما يختزنه الموروث الصوفي من جماليات تعكسها القراءة الصوفية للنصوص القرآنية، من خلال نموذج الأمير عبد القادر.

وتتمحور إشكالية الدراسة حول سؤالين أساسيين مفادهما: هل للأمير رؤية خاصة للقرآن العظيم؟ وهل لتأويله العرفاني لنصوص القرآن أبعاد جمالية؟

وتتم الإجابة على هذه الإشكالية من خلال أربعة محاور أساسية تشدها مقدمة وخاتمة. يتناول المحور الأول مفهوم التأويل العرفاني ولمحة عن بداياته، وشروط الخوض فيه. ويتناول المحور الثاني التأصيل الشرعي للتأويل العرفاني. ويقدم المحور الثالث نماذج من كتاب المواقف لتأويلات الأمير العرفانية للنصوص القرآنية. ويسعى المحور الرابع إلى إماطة اللثام عن الأبعاد الجمالية للتأويل العرفاني.

وتتم معالجة الموضوع وفق المنهجين الوصفي والاستقرائي، من خلال وصف الرؤية الصوفية للتأويل العرفاني للقرآن الكريم، واستقراء نصوص الأمير في ذلك.

أولا- التأويل العرفاني، المفهوم والضوابط

لم يكن التأويل العرفاني أو التفسير الإشاري وليد نشوء التصوف الإسلامي كما يذهب الكثير من الباحثين[1]، ولكن نجد أن أُولى ملامحه قد تشكلت في زمن النبوة، وخصوصا مع أهل البيت -عليهم السلام- كابن عباس (ترجمان القرآن) والإمام علي، ليتمهد الطريق فيها بعد بشكل أبرز للإمام جعفر الصادق -عليه السلام- الذي لا يخلو مصنف في التفسير الإشاري من أقواله، والتي جُمعت فيما بعد في مصنف بعنوان: "كامل التفسير الصوفي العرفاني للقرآن" بتحقيق علي زيعور. وقد ثبت أن الإمام علي -كرم الله وجهه- الذي يسميه الأمير عبد القادر بإمام أهل هذه الطريقة وقدوتهم بعد رسول الله ﷺ: أنه سُئل: "هل خصّكم أهلَ البيت رسولُ الله ﷺ بشيء من العلم؟! فقال: "لا، والذي فلق الحبّة، وبرأ النسمة، إلاّ فهما أعطيه رجل في كتاب الله.[2]"

وما إن انقضى عهد التابعين إلا وبرزت معالم التأويل العرفاني بداية مع الإمام سهل التستري، الذي تأهلت أقواله ليتألف منها مصنف مستقل في "تفسير القرآن العظيم"، وذو النون المصري الذي نُشر له تفسير مختصر بعنوان: "التفسير العرفاني للقرآن الكريم"، وكلا التفسيرين مختصرين لا يتجاوز الواحد منهما جزء واحدا. بالإضافة إلى وجود عدة تفسيرات إشارية وتأويلات عرفانية لعلماء الصوفية الأوائل مبثوثة في متونهم، كالإمام الجنيد الذي تعددت تأويلاته الإشارية للنصوص القرآنية، وكذا الحلاج الذي وضع تفسيرا مختصرا بعنوان: "خُلق خلائق القرآن والاعتبار"، أيضا الإمام البسطامي، والحارث المحاسبي، والشبلي، والإمام ابن عطاء الآدمي الذي وصفه الإمام السلمي بأن له لسان في فهم القرآن يختص به،[3] وغيرهم كثير.

ومع توسع نطاق هذا النوع من التفسير، وما يستتبع ذلك من اختلاطٍ للأصيل بالدخيل جاء الإمام سرّاج الدين الطوسي في القرن الرابع ليميّز من خلال "لمعه" الخبيث من الطيب. وبحلول القرن الخامس ظهر أول تفسير إشاري كامل للقرآن الكريم مرتّباً ومنظما بعنوان: "حقائق التفسير" للمحقق أبي عبد الرحمان السلمي، ويليه تفسير أكثر اتساعا ودقة هو "لطائف الإشارات" للإمام

(1) مثل الدكتور خنجر حمية. يُنظر: دراسات في تفسير النص القرآني، مجموعة باحثين، (2/ 207).

(2) رواه البخاري، (3047).

(3) طبقات الصوفية، **أبو عبد الرحمان السلمي**، ص 207.

القشيري. وهكذا تتالت الكثير من المبادرات التفسيرية والإبداعات التأويلية من قبل الصوفية، منها تفسير صدر الدين روزبهان الشيرازي الموسوم بـ: "عرائس البيان في حقائق القرآن"، و"التأويلات النجمية" لصانع الأولياء الشيخ نجم الدين كبرى، و"بغية البيان في تفسير القرآن" للسهروردي صاحب العوارف، و"البحر المديد في تفسير القرآن المجيد" لابن عجيبة الحسني، وغيرها من التفاسير التي تزخر بها المكتبة الصوفية، منها ما وصلنا كالتي ذكرنا، ومنها ما لا يزال مفقودا كتفسير أبي حامد الغزالي المسمى بـ: "ياقوت التأويل في تفسير التنزيل"[1] يقع في أربعين مجلدا، وتفسير الشيخ الأكبر بن العربي المكون من أربع وستين مجلدا تحت عنوان: "الجمع والتفصيل في أسرار معاني التنزيل."[2]

معنى التأويل العرفاني

العرفاني نسبة للمعرفة، أي معرفة النفس والآفاق التي تمثل باب الولوج إلى معرفة الحق تعالى استنادا للرواية المشهورة: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ[3]»، وأساس التأويل العرفاني نور يقذفه الحق تعالى في قلب من يشاء من عباده المجاهدين في سبيله، السالكين طريق القرب منه، يمكّنهم من استنباط المعاني الخفية والباطنة في الآيات القرآنية بإشارة أو كشف أو إلهام. يقول الأمير: "إن كلام أهل الله تعالى في الحقائق الإلهية والتوحيد الشرعي التنزّلي إنما هو تنزّلات إلهية، وإلقاء رباني وإلهام روحاني، يُنزله الحق تعالى في قلوبهم فتنطق به ألسنتهم"[4].

ويرتبط تعريف التأويل العرفاني عند علماء القرآن بالصوفية والعارفين دون غيرهم، فيعرفه الزرقاني بأنه: "تأويل القرآن بغير ظاهره لإشارة خفية تظهر لأرباب السلوك والتصوف، ويمكن الجمع بينها وبين الظاهر المراد أيضا"[5]. ويضيف الصابوني شيئا من التفصيل مؤكدا على شرط التوافق بين المعنيين الظاهري والباطني للآية، فيقول: "هو تأويل القرآن على خلاف ظاهره، لإشارات خفية تظهر لبعض أولي العلم، أو تظهر للعارفين بالله أرباب السلوك والمجاهدة للنفس، ممن نور الله بصائرهم فأدركوا أسرار القرآن العظيم، أو انقدحت في أذهانهم بعض المعاني الدقيقة، بواسطة

(1) كشف الظنون، **حاجي خليفة**، (2/ 2048).

(2) مؤلفات ابن عربي، **عثمان يحي**، ص 276.

(3) قال الأمير: "هذا الخبر وإن أنكره الحفاظ وقالوا: من كلام أبي بكر الرازي، فقد تداوله القوم في كتبهم، وبنوا عليه كثيرا من الحقائق، فلعله صح عندهم كشفا، بل قد صحّ عندنا شهودا ووقوعا، وأما رواية وورودا عن رسول الله ﷺ فلا." يُنظر: المواقف، **الأمير**، (1/ 315).

(4) المواقف، **الأمير**، (2/ 222).

(5) مناهل العرفان، **الزرقاني**، ص470.

الإلهام الإلهي أو الفتح الرباني، مع إمكان الجمع بينهما وبين الظاهر المراد من الآيات الكريمة.[1]" وقد أكد من قبل حكيم الصوفية ابن عطاء الله السكندري على عدم وجود تعارض بين ظاهر النص وباطنه، وأن تفسير الصوفية لكلام الله وكلام رسوله بالمعاني الغريبة ليس إحالة للظاهر عن ظاهره، ولكن ظاهر الآية مفهوم منه ما جلبت له الآية ودلت عليه في عرف اللسان، وثمَّ أفهام باطنة تُفهم عند النص لمن فتح الله على قلبه [2].

ومن هنا، يتحدد الفارق بين منهج الصوفية ومنهج الباطنية، فإذا كان الأخير ينصرف عن ظاهر النص تماما مكتفيا بالباطن، فإن المنهج الصوفي يقر بما للنص من ظاهر وباطن ويحاول الجمع بينهما. بمعنى أن التفسير العرفاني مكمل للتفاسير الظاهرة وغير مناقض لها، وهو مضيف لمعانٍ جديدة توصل إلى لُباب المعاني الظاهرة، ويخرق العبارة ليكشف الإشارة. وقد حذّر الإمام الآلوسي من الخلط بين المنهجين العرفاني والباطني، فقال: "وأما كلام السادة الصوفية في القرآن، فهو من باب الإشارات إلى دقائق تنكشف على أرباب السلوك، ويمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة، وذلك من كمال الإيمان ومحض العرفان، لا أن الظاهر غير مراد أصلا وإنما المراد الباطن فقط؛ إذ ذاك من اعتقاد الباطنية الملاحدة، توصلوا به إلى نفي الشريعة بالكلية، وحاشا سادتنا من ذلك. كيف وقد حضّوا على حفظ التفسير الظاهر وقالوا: لابد منه أولا؛ إذ لا يطمع الوصول إلى الباطن من قَبْل إحكام الظاهر، ومن ادّعى فهم أسرار القرآن ظاهرا وباطنا قبل إحكام التفسير الظاهر، فهو كمن ادّعى البلوغ إلى البيت قبل أن يجاوز الباب" [3] .

ويقرر الأمير: "أن القوم رضوان الله عليهم لما استقامت ظواهرهم وبواطنهم على الطاعات، واتباع السنة قولا وعملا وحالا قوي إيمانهم، فتثوّروا[4] القرآن والسنة، إذ ذاك بستانهم الذي فيه يتنزهون، وفي أرجائه يترددون، ظهرت لهم منهما أشياء كانت مندمجة مستورة عن العموم، وما هي بخارجة عن الأصل الذي هو الكتاب والسنة، ولا زائدة عليه، حتى يقال الحقيقة غير الشريعة! كلاّ وحاشا، وإنما أظهرت أسرار الكتاب والسنة وإشاراتهم ظهور السمن من اللبن" [5]. وعليه

---

(1) التبيان في علوم القرآن، **الصابوني**، ص169.

(2) لطائف المنن، **ابن عطاء الله السكندري**، ص136، 137.

(3) روح المعاني، **الآلوسي**، (1/ 8).

(4) أي بحثوا.

(5) المواقف، **الأمير**، (1/ 438).

فالتأويلات الإشارية هي تلك المعاني الإيحائية التي توحي بها الآيات، والمعنى الإيحائي تابع للمعنى الأصلي، فلا يلغيه ولا يحل محله ولا يوازيه، ولكن يقاربه ويدانيه تأملا واعتبارا.

وبما أن التفسير الإشاري متعلق بأرباب السلوك، فهذا يعني أنه يتمحور أساسا حول النفس الإنسانية وكيفية تزكيتها، وربطُ آي القرآن بالمقاصد الأخلاقية والتزكوية، فالصوفي لا يتعاطى مع القصص القرآني –مثلا– على أنها وقائع تاريخية وأحداث انتهت بانتهاء زمانها ومكانها وأفرادها، وما الهدف منها إلا الاتعاظ والاعتبار. وإنما يتعاطى مع القرآن الكريم على أنه كلام الله المتجدد والمتجلي في كل آنٍ، لقول الإمام جعفر الصادق: "لقد تجلى الله تعالى لعباده في كلامه ولكن لا يبصرون" [1]. فالقرآن الكريم حين يتحدث عن فرعون وهامان وقارون والنمرود وحمالة الحطب وغيرهم من المفسدين، ويذكر الأنبياء والصالحين، لا يبتغي التعريف بشخصيات انتهت فاعليتها، لتسلية القارئ، ولكن المقصود هو توجيه الإنسان إلى التفتيش بداخله عن فرعون وقارون والنمرود وغيرهم كسلوك دنيّ يجب إفناءه، واكتشاف موسى وإبراهيم وآسيا وغيرهم كسلوك سنّي يجب إحياءه.

ضوابط التأويل العرفاني

جعل العلماء ثلاثة أصول يدور حولها التفسير: تفسير على اللفظ، وتفسير على المعنى، وتفسير على الإشارة وهو الخاص بالسادة الصوفية، وسمحوا به إذا الْتزم بأربعة شروط وضوابط علمية، تفاديا للتسيّب العلمي والديني، هي:

1- ألا يناقض معنى الآية.

2- أن يكون معنى صحيحا في نفسه.

3- أن يكون في اللفظ إشعار به.

4- أن يكون بينه وبين معنى الآية ارتباط وتلازم [2].

مع الإشارة أن هذه الأربعة هي ضوابط ظاهرة تستبطن ضابطا خفيا هو التقوى الشرعية الموجبة للعلم لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ (البقرة: 282) فهي مفتاح الفهم عن الحق تعالى، وهي طهارة القلب التي أوجبها علماء الصوفية على كل من يتصدى لتفسير كلام الله الذي ﴿لَا

(1) الشرح القرآني لكتاب التجليات، **عبد الباقي مفتاح**، ص20.

(2) التبيان في أقسام القرآن، **ابن القيم**، ص35.

يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (الواقعة:79) "فكما أن ظاهر جلد المصحف وورقه محروس عن ظاهر بشرة اللامس إلا إذا كان متطهرا، فباطن معناه أيضا بحكم عزّه وجلاله محجوب عن باطن القلب إلا إذا كان متطهرا عن كل رجس، ومستنيرا بنور التعظيم والتوقير، وكما لا يصلح لمس جلد المصحف كل يد، فلا يصلح لتلاوة حروفه كل لسان، ولا لنيل معانيه كل قلب" [1]. ففهم القرآن عند الصوفي لا ينتج عن استنباط المعنى من الدرس في الكتب أو من إعمال العقل في النص، ولكن من الرياضة والمجاهدة ليصبح القلب مستعدّاً لاستقبال الإلهام الرباني.

لذلك أوجب الإمام المحاسبي في كتابه "العقل وفهم القرآن" على كل من يرجو فقه القرآن الكريم أو تفهيمه؛ أن يستحضر شرطين أدبيين؛ أولهما: تعظيم كلام الله وحبّه وإجلاله، فإذا عظُم في الصدر تعظيم المتكلم وكلامه، فتح المتكلم للمعظِّم باب الفهم لكلامه عزّ وجل، والمحب لكلام الله مؤهّل لتذوق معانيه، "ولا ألذّ ولا أحلى من استماع كلام الله جلّ وعزّ، وفهم معانيه تعظيما وحبا له وإجلالا." والثاني: تفريغ القلب عن كل ما سوى الله والالتفات عن صور الأكوان إلى المكوّن–جلّت عظمته–، كما قال ابن عطاء الآدمي: "لا يفهم إشارات القرآن إلا من طهّر سرّه من الأكوان وما فيها.[2]" لقوله تعالى:﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (ق:37) أي "ألقى السمع: لا يحدّث نفسه بغير ما يسمع، وهو شهيد: شاهدُ القلب." ولقوله تعالى أيضا:﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا﴾ (الأحقاف:29) "أي قالوا: صه، أفلا نسمع الله عز وجل؟ مدحهم بأن سكتوا عن الكلام لئلا يشتغلوا عن فهم ما يتلو نبيّه ﷺ عليهم" [3].

فالصوفي يقيم علاقة تفاعلية مع النص القرآني، بحيث ينظر في ذاته أثناء تلاوته للقرآن أين مقامه مما يقرأ، فكلما تزكت النفس وشفّت الروح وأنصت سمع القلب إلى الإلهامات الإلهية تأهل الصوفي لأن يفسر نصوص القرآن، وكلما صقلت مرآة القلب وصفى الوجدان انكشفت له معان إيحائية أكثر عمقا ولاحت له إشارات أكثر لطافة.

التأصيل الشرعي للتأويل العرفاني

يستمد التأويل العرفاني مشروعيته من كلام النبيّ ﷺ وآل بيته –عليهم السلام– حيث يقول الأمير في سياق إثباته لتمسك الصوفية بالشرع في تأصيل مسائلهم: "وأهل طريقنا رضي الله عنهم ما

(1) إحياء علوم الدين، **الغزالي**، (3/ 509).

(2) نصوص صوفية غير منشورة، **بولس نويا اليسوعي**، ص155.

(3) العقل وفهم القرآن، **الحارث المحاسبي**، ص 302– 320.

ادّعوا الإتيان بشيء جديد، وإنما ادّعوا الفهم الجديد في الدين التليد، وساعدهم الخبر المروي أنه: «لاَ يَكْمُلُ فِقْهُ الرَّجُلِ حَتَّى يَرَى لِلْقُرْآنِ وُجُوهًا كَثِيرَةً[1]»، والخبر الآخر: «أَنَّ لِلقُرْآنِ ظَهْرًا وَبَطْناً، وَحَدًّا وَمطَّلعاً[2]»... وما في هذه المواقف من هذا القبيل... وإن القوم ما أبطلوا الظواهر، ولا قالوا ليس المراد من الآية إلا ما فهمنا. بل أقرّوا الظواهر على ما يعطيه ظاهرها، وقالوا: فهمنا شيئا زائدا على ما يعطيه ظاهرها" [3].

ويخصص الأمير موقفا كاملا (الموقف 85) لشرح قوله ﷺ: «إِنَّ الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ»، وفي رواية: «إِنَّ الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، لِكُلّ آيَةٍ مِنْهُ ظَهْرٌ وَبَطْنٌ وَلِكُلّ حَرْفٍ حَدٌّ وَمَطْلَع.[4]» فيرى أن المراد بالأحرف هنا الأحرف الحقيقية، "إذ الأحرف عند الطائفة العلية [الصوفية] ثمانية أنواع: أحرف حقيقية، وأحرف عالية، وأحرف روحانية، وأحرف صورية، وأحرف معنوية، وأحرف خيالية، وأحرف حسية لفظية، وأحرف خطية. والمراد من الأحرف الحقيقية الأمهات السبعة والأصول الكلية: (العلم، والإرادة، والقدرة، والكلام، والسمع، والبصر، والحياة)... وأخبر ﷺ أن هذا القرآن وهو النظم المعجز المنزل عليه ﷺ أُنزل مستولياً ومستعلياً استعلاء دلالة على متعلقات هذه الأحرف التي ذكرناها. وهي أمهات الأسماء والصفات. فكل مدلولاتها ومتعلقاتها يدل عليها القرآن العظيم، وتؤخذ منه. ولذا ورد عن ابن عباس –رضي الله عنهما– أنه قال: "ما حَرَّكَ طَائِرٌ جَنَاحَيْهِ إِلَّا وَجَدْنَا ذَلِكَ فِي كِتَابِ الله تَعَالَى"[5] .

كما ثبت عن الإمام علي –كرم الله وجهه– أنه قال: "لو شئتُ لأوقرتُ من تفسير الفاتحة ثمانين بعيرا" [6]. وقال أيضا: "ما من آية إلا ولها أربعة معانٍ: ظاهر، وباطن، وحدّ، ومطلع. الظاهر التلاوة، والباطن الفهم، والحد هو عبارة وإشارة، وأحكام الحلال والحرام، والمطلع مراده من العبد بها. وجعل القرآن عبارة وإشارة ولطائف وحقائق، فالعبادة للسمع، والإشارة للعقل، واللطائف للمشاهدة، والحقائق للاستلام." وروي عن ابن عباس أنه قال: "إن القرآن ذو شجون وفنون، وظهور وبطون،

---

(1) أورده أبو حيان في تفسيره بلفظ: «لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوها كثيرة». يُنظر: تفسير البحر المحيط، **أبو حيان الأندلسي**، (1/ 25)

(2) ذكره أبو طالب المكي موقوفا على ابن مسعود، وقال: وبعض الرواة يرفعه وقد رويناه مسنداً من طريق وهو خصوص العارفين"، يُنظر: قوت القلوب، **أبو طالب المكي**، (1/ 93).

(3) المواقف، **الأمير**، (1/ 33، 34).

(4) حديث ضعيف، أخرجه الطبراني في الأوسط، (777)، وأخرجه في الكبير، (10090).

(5) المواقف، **الأمير**، (3/ 218)

(6) المصدر السابق، (3/ 52)

لا تنقضي عجائبه، ولا تُبلغ غايته، فمن أوغل فيه برفق نجا، ومن أخبر فيه بعنف هوى، أخبار وأمثال، وحلال وحرام، وناسخ ومنسوخ، ومُحكم ومتشابه، وظهر وبطن، فظهره التلاوة، وبطنه التأويل، فجالسوا به العلماء، وجانبوا به السفهاء" [1].

ورُوي عن الإمام جعفر الصادق -رضي الله عنه- أنّه قال: "كتابُ الله على أربعة أشياء: العبارة والإشارة واللّطائف والحقائق. فالعبارةُ للعوامِّ والإشارةُ للخواصّ واللّطائفُ للأولياء والحقائقُ للأنبياء عليهم السّلام.[2]" وغير ذلك من الروايات الثابتة عن الصحابة وآل البيت التي تشير إلى استبطان القرآن العظيم لمعانٍ لا يجلّيها إلا الراسخون في العلم.

القرآن الكريم في رؤية الأمير عبد القادر العرفانية

يؤسس الأمير رؤيته للقرآن الكريم انطلاقا من منظومته العرفانية ورؤيته للوجود، فيقرر في نص مطّول أن القرآن: "من القرء وهو الجمع، ولما كان جامعاً تجاذبته الحقائق الإلهية والكونية، فإنه ترجمة حقيقة الحقائق الجامعة للحقائق الإلهية والكونية، وترجمة أحكامها وأحكام تفاصيلها، وترجمة المظهر المحمدي، وترجمة أحواله وأخلاقه، وترجمة أحوال متابعيه. فالقرآن من العلم الإلهي بمنزلة الإنسان من العالم، فإنه مجموع العالم، أعني الإنسان الكامل... فليس المراد من تسمية الكلام القديم بالقرآن كونه جامعاً للحروف والكلمات والآيات والسور فقط، بل لكونه جامعاً للمعلومات الإلهية متضمناً لها، عرف ذلك من عرفه وجهله من جهله. إذ كلامه حقيقة واحدة أظهر بها معلوماته التي لا نهاية لها. والقرآن الكلام القديم مبيّن لها وكاشف عنها، فإن حقيقة البيان دليل يحصل به الإعلام فيفهم من فتح الله عليه في الفهم في القرآن ما قدر له حسب استعداده وما قسم له من الفيض الذاتي والحكم الأزلي. فيأخذ السعيد منه ما يسعده وينفعه، ويأخذ الشقي منه ما يشقيه ويضره. والكل مراد الله في كلامه.[3]"

ويتحدث الأمير في عدة مواطن من مواقفه عن البعد الأنطولوجي للقرآن الكريم، مشيرا إلى ما يسميه بـــ: حضرتي القرآن والفرقان، ويبيّن الفرق بين الحضرتين من خلال تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (النحل: 98)، "أي إذا قرأت القرآن، ثم نزلت إلى قراءة الفرقان فاستعذ، لأن حضرة القرآن حضرة الجمع والوجود حضرة الذات الجامعة الأحدية،

(1) التأويلات النجمية، **نجم الدين كبرى**، (1/ 20)

(2) حقائق التفسير، **السلمي**، (1/ 22، 23).

(3) المواقف، **الأمير**، (3/ 217).

وهو حال شهود حق بلا خلق، وهو المعروف عند ساداتنا -رضوان الله عليهم- بوحدة الشهود؛ وهذه الحضرة لا شيطان فيها. ثم بعد قراءة القرآن، رجعت إلى قراءة الفرقان، مقام شهود خلق قائم بحقّ وهو المعروف عند السادة بوحدة الوجود، حضرة الصفات والكثرة الاعتبارية، فحينئذ يلزمك بعد قراءة القرآن والرجوع إلى الفرقان، ملاحظة الحكم الإلهية، ومراعاة الأسباب والوسائط، حسب أمر الشارع بذلك"[1].

إن رؤية الصوفي الوحدوية للوجود تملي عليه استنطاق الصلة القائمة بين واجب الوجود والمجودات، وبين الموجودات فيما بينهما، وذلك ما دلّ عليه نص السابق الأمير، وغيره من نصوص مواقفه، المشيرة إلى مقابلة القرآن للعالم من جهة، وللإنسان الكامل من جهة ثانية، ولحقيقة الحقائق المنشئة لكل ذلك من جهة أخرى، فيكون القرآن الكريم هو ترجمة حقيقة الحقائق الجامعة للحقائق الإلهية والكونية، وهو ما تعنيه كلمة القرآن نفسها (الجمع والقرء).

وقد أشار شيخنا الأكبر في عدة مواطن من فتوحاته إلى تلك الصلة القائمة بين القرآن ومكونات الوجود مختصرا ذلك بقوله: "الوجود كله حروف وكلمات وسور وآيات، فهو القرآن الكبير" [2]. فما في القرآن موجود في الكون، ومنه فالكون (قرآن كبير مفتوح)، وما في الكون موجود في القرآن، ومنه فالقرآن (كون مختصَر بين دفّتين). "فكل شيء في كل شيء، فهو في الكتاب المبين القرآن المجيد، إذ الكتاب كلامه، وكلامه صفته العامة... وصفته عين ذاته... فمن فتح له في فهم الكتاب القرآن لم يفته شيء مما يصح أن يُعلم مما هو في اللوح المحفوظ المسمى بكل شيء" [3]. ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ (النبأ:2)

هذا الترابط الوثيق بين مكونات الوجود مؤسس على عقيدة وحدة الوجود العرفانية، ومفاده أن الخلق صورة للحق، والإنسان الكامل كون صغير وقرآن يمشي، والكون إنسان كبير وقرآن منظور، والقرآن إنسان مكتوب وكون مقروء. والكل من عند الله.

كما يقرر الشيخ محيي الدين أيضا أن القرآن والإنسان أخوان؛ وليس ذلك إلا من أُنزل عليه القرآن من جميع جهاته ونِسبه وما سواه من ورثته إنما أُنزل عليه من بين كتفيه فاستقر في صدره عن ظهر غيب وهي الوراثة الكاملة، فمن وقف مع القرآن من حيث هو قرآن كان ذا عين واحدة أحدية

(1) المصدر السابق، (1/ 361).

(2) الفتوحات المكية، **ابن العربي**، (7/ 246).

(3) المواقف، **الأمير**، (3/ 52).

الجمع، ومن وقف معه من حيث ما هو مجموع كان في حقه فرقانا فشاهد الظهر والبطن والحد والمطلع، فقال لكل آية ظهر وبطن وحد ومطلع. ويستشهد ابن العربي في هذا السياق بنموذج أبي يزيد البسطامي ويذكر أنه ما مات حتى استظهر القرآن [1].

ولا يقصد ابن العربي باستظهار القرآن أن أبا يزيد حفظه غيباً، فهذا ليس بالأمر النادر بل هو متأتٍ للجميع حتى للأطفال غير المكلفين، وإنما يشير إلى أن البسطامي ما مات حتى أخذ القرآن كله عن إنزال، وهذا معنى دوام تنزل القرآن على قلوب الأولياء فهما وتذوقاً. وقد اختزن الموروث الصوفي عدة نماذج أمثال البسطامي، حيث يروي الغزالي عن أحد العارفين أنه كانت له في كل جمعة ختمة، وفي كل شهر ختمة وفي كل سنة ختمة، وقال: لي ختمة منذ ثلاثين سنة ما فرغت منها بعد[2]. وكأن الصوفي يتدرج بتلاوته للقرآن الكريم ويرتقي في مقامات الختمات من ختمة التلاوة إلى ختمة التدبر إلى ختمة التحقق، أين يكتمل تحققه بالنموذج الأكمل ﷺ فيصل إلى مقام (القرآن يمشي).

وهذا ما عاش عليه الصحابة -رضوان الله عليهم- حيث انتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى عن عشرين ألفا من الصحابة -في المدينة وحدها- لا يحفظ القرآن منهم إلا ستة واختُلف في اثنين منهم،[3] وكان أكثرهم يحفظ السورة أو السورتين أو بعض الآيات، لأنهم كانوا مدركين لحقائق القرآن ولقدْره. ويروي الغزالي عن أحدهم جاء ليتعلم القرآن فانتهى إلى قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (الزلزلة:7،8) فقال: يكفيني هذا وانصرف. فقال رسول الله ﷺ «اِنْصَرَفَ الرَّجُلُ وَهُوَ فَقِيه[4]» أي يكفيه أنه فقه الآية. وهكذا حال أهل الله؛ فقبل أن يحفظ الواحد منهم الآية فإنه يعمل بها ويطبق حكمها، ويُخلص فيها، ويمحّص إخلاصه، ثم يَصْدُق في التمحيص ثم يترقى في معارج معانيها حتى يتحقق بمقامها [5]. وهذا ما يُسميه القوم بـــ: "أعمال الباطن في التلاوة"، وهي: "فهم أصل الكلام، ثم التعظيم، ثم حضور القلب، ثم التدبّر، ثم التفهم، ثم التخلي عن موانع الفهم، ثم التخصيص، ثم التأثر، ثم الترقي، ثم التبري" [6].

---

(1) الفتوحات المكية، **ابن العربي**، (5/ 138).

(2) إحياء علوم الدين، **الغزالي**، (3/ 511)

(3) الحفظة الأربعة هم: عبد الله بن مسعود وأُبَي بن كعب، وسالم مولى أبي حذيفة، ومعاذ بن جبل، والمختلف فيهما هما: زيد وأبو زيد. يُنظر: الإحياء، الغزالي، (3/ 519).

(4) إحياء علوم الدين، **الغزالي**، (3/ 518، 519).

(5) روي عن عمر -رضي الله عنه- أنه حين حفظ عشر آيات ذبح جزورا.

(6) إحياء علوم الدين، **الغزالي**، (3/ 507).

والصوفي لا يهمه كم يحفظ من القرآن، ولكن الذي يشغله ماذا فعل فيه القرآن وماذا فعل هو به؟ لذا يفسر الأمير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فيقول: "إذا كان المستمع هو القارئ يكون كمن تُحدثه نفسه وهو يستمع حديثها. فسامع القرآن بهذه الطريقة يأتمر لأوامره، وينزجر لزواجره، ويتّعظ بمواعظه، ويتيقّظ لإشاراته، وحينئذ تكون رحمة هذا المستمع محققة واجبة الحصول... وأما إذا سمعه بغير هذه الطريقة فلا يكون داخلاً تحت هذا الوعد الكريم، فلا تكون رحمته محققة. وإذا كان القارئ غير المستمع، فربّما كان لا يسمع منه إلاّ نغماته وتمطيطه، وحسن صوته فلا يدرك المعاني فضلاً عمّا وراءها؛ وإذا كان هو القارئ، فلربما كان ممّن قال فيه رسول الله ﷺ «رُبَّ قَارِئٍ لِلقُرْآنِ وَالقُرْآنُ يَلعَنُهُ»" [1].

لأن المراد من قراءة القرآن هو إدراك المعنى، وإدراك المعنى مرادٌ للعمل، والعمل مراد للتحقق بالقرآن، لذا سُنّ الترتيل لغرض التدبّر لا للتغني، وهذا ما يفسر لنا قراءة رسول الله ﷺ للبسملة عشرين مرة كما ثبت[2]، لأنه كان في كل مرة يتدبرها تتجلى له أسرار ومعاني وأنوار وإشراقات غير التي سبقت. ومن هنا نتفهم الإمام القشيري الذي يقف على البسملة في كل سورة فيفسرها بمعنى يختلف عن معانيها في السور الأخرى، بل إنه يقف على "بسم" في كل مرة، بل وعلى الباء من "بسم" وعلى كل حرف من البسملة له معنى خاص. وهذا راجع –إضافة لتجدد التجليات– إلى علم الحروف ودلالة الحرف عند العرفانيين، وعلاقة الحرف اللغوي بالحرف الوجودي، وهو موضوع شاسع وعميق ليس هذا مجاله.

وفي سياق تجدد التجليات وتعدد الواردات على تالي القرآن يقول الأمير في شرحه لإحدى الروايات النبوية: "وقد أوّلنا هذا الحديث في هذه المواقف بنقيض هذا التأويل، بوارِدٍ مناقض لهذا الوارد، فإننا بحسب ما يرِد لا بما نريد.[3]" أي بحسب الواردات تختلف التأويلات. والتراث الصوفي مشحون بتجارب القوم وقوة تفاعلهم مع النصوص القرآنية بحسب ما يرد عليهم، حيث ثبت أن منهم من كان يُغشى عليه أثناء تلاوة القرآن، ومنهم من مات لقوة استغراق آية من الآيات، وغيرها من التجارب العجيبة مع القرآن، التي جمعها لنا أبو إسحاق الثعلبي في كتابه الموسوم بــ: "قتلى القرآن" فيمن ماتوا وهم يقرأون القرآن لشدة ما رأوا من تجليات.

(1) المواقف، **الأمير**، (1/ 323، 324).

(2) إحياء علوم الدين، **الغزالي**، (3/ 511).

(3) المواقف، **الأمير**، (2/ 190).

وقد كان الأمير عبد القادر ممن أنعم الله تعالى عليهم باستظهار القرآن الكريم، حسب تصريحه في أول موقف من مواقفه، حين ذكر كيف كان يتلقى القرآن بواردات نورانية، حيث يقول في بداية تفسيره لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب:21): "هذه الآية الكريمة تلقيتها تلقيا غيبيا روحانيا، فإن الله تعالى قد عوّدني أنه مهما أراد أن يأمرني أو ينهاني، أو يبشرني أو يحذرني، أو يعلمني علماً أو يفتيني في أمر استفتيته فيه، إلا ويأخذني منّي مع بقاء الرسم، ثم يلقي إلي ما أراد بإشارة آية كريمة من القرآن، ثم يردّني إلي، فأرجع بالآية قرير العين ملآن اليدين، ثم يلهمني ما أراد بالآية، وأتلقى الآية من غير حرف ولا صوت ولا جهة. وقد تلقيت ـ والمنة لله تعالى ـ نحو النصف من القرآن بهذا الطريق، وأرجو من كرم الله تعالى ألّا أموت حتى أستظهر القرآن كله"[1].

ويضيف في موضع آخر: "من بعض نعم الله عليّ: أنني منذ رحمني الله تعالى بمعرفة نفسي ما كان الخطاب لي والإلقاء عليّ إلا بالقرآن الكريم... والمناجاة بالقرآن من بشائر الوراثة المحمدية"[2]. هكذا حال الصوفي مع القرآن الكريم، فهو لا يسمح لنفسه بتكرار تجارب السابقين في التفاعل مع النصوص المقدسة، ولكنه يكتب على نفسه خوض تجربته الخاصة مع القرآن للانسجام معه والتماهي في أنواره والتلاشي في إشراقاته، فيكون القرآن منبع كل أعماله وأقواله وحركاته وسكناته وأنفاسه، لذا يؤكد الأمير في مواقفه على القاعدة الغوثية[3]: "لا يكون المريد مريداً حتى يجد في القرآن كل ما يريد"، هذه القاعدة لا يزيغ عنها صوفي مهما بلغ في الطريق، لأن بداية الطريق عند القوم بداية التمسك بالكتاب والسنة، ونهايته نهاية التمسك بالكتاب والسنة [4].

ويشير الأمير إلى وثاقة ومتانة الصلة التي تربط الصوفية بالقرآن الكريم فيذكر أن "بعض سادة القوم قال: لو ضاع لي عقال لوجدته في كتاب الله. وقد علم الشيخ محي الدين الحاتمي كونه ختم الولاية، يعني الوراثة المحمدية الخاصة لا مطلق الولاية، وعرف اسمه واسم أبيه وقبيلته وزمانه ومولده ومسكنه من آيات من القرآن ذكرها مرموزة في كتابه "عنقاء مغرب في ختم الولاية وشمس المغرب" يريد نفسه" [5].

---

(1) المصدر السابق، (1/ 105).

(2) المواقف، **الأمير**، (1/ 145).

(3) نسبة لأبي مدين الغوث. المصدر السابق، (3/ 218).

(4) قوت القلوب، **أبو طالب المكي**، (1/ 30)

(5) المواقف، **الأمير**، (3/ 218)

ولا غرابة فيما ذكر الأمير عن أستاذه الروحي ابن العربي، فقد ذكر خبرا عن ابن عباس –رضي الله عنه– أنه قال: " ما حرّك طائر جناحيه في السماء إلا وجدنا ذلك في كتاب الله.[1]" كما أنه ثبت في الصحيح أنه ﷺ قال: «كِتَابُ الله فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ[2]» فكل شيء– حسب الأمير– "هو في كتاب الله القرآن، أو فيه أصله قَرُب أو بَعُد، فهمه من فهمه وعمه عنه من عمه، وقد استنبط بعضهم عمر النبي ﷺ ثلاثاً وستين سنة من قوله في سورة المنافقين: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ (المنافقون: 63) فإنها رأس ثلاث وستين، وأعقبها بالتغابن ليظهر التغابن في فقده ﷺ" [3].

نماذج التأويل العرفاني عند الأمير

يحسن بنا أن نستحضر بعض الأمثلة عن التأويل العرفاني التي رصّع بها الأمير عبد القادر كتابه المواقف، والتي تكشف عن مدى تأثير منظومته المعرفية العرفانية ورؤيته الوجودية في فهمه للنصوص القرآنية والتفاعل معها.

1- في السير الجامع بين الشريعة والحقيقة

من خلال رؤيته للطريق الصوفي الذي يجمع بين مقامي الجمع والفرق؛ الحقيقة والشريعة، يؤول الأمير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة: 198، 199) فيرى بعينه العرفانية أن هاتين الآيتين: "هي إرشاد وتعريف، وأمر وتكليف، لمن حجّ الذات العلية من السالكين المردودين. ووقف بعرفات الوحدة الذاتية، حضرة القرآن الكريم العظيم، إذا أفاض ورجع منها إلى حضرة الصفات وموطن الفرقان والتكليف، أن يذكر الله تعالى بأمره ونهيه الذي هو أفضل من ذكر اللسان، قائماً عند ما حدّه وشرّعه المشعر الحرام محمد ﷺ، إذ كل مأمور بتعظيمه من قِبل الحق تعالى فهو مشعر، ولأنه ﷺ من حيث حقيقته محل الشعور والمعرفة، فليس لوليّ ولا لنبيّ يأتي بعده ﷺ أن يتعدّى شرع محمد ﷺ أو يبدّل أو يغير شيئاً منه، فسلسلة الشرع المحمّدي لا تنفك عن رقبة سالك، ولا واصل، ولا عالم بالله، ولا جاهل.

---

(1) المصدر السابق، (3/ 218).

(2) رواه الترمذي (2908)، والطبراني في الكبير (20/ 84/ 160)

(3) المواقف، **الأمير**، (3/ 52).

﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾ أي اذكروا محمداً بتعظيم وتوقير، واعرفوا له قدره ووساطته لأجل هدايتكم إلى الله تعالى، فهو ﷺ الممد لكل نبي ووليّ من لدن خلق العالم إلى غير نهاية، عرف ذلك من عرفه، وجهله من جهله.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ﴾: أي قبل الْتفاته إليكم الْتفات عناية بالإمداد والإرشاد، ﴿لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾: الحائرين الجائرين عن صوب الصواب، ومعرفة المدخل والباب. ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾: أي إذا وفقتم إلى ما شرعه محمد ﷺ ظاهراً وباطناً فقفوا من حيث وقف الناس، وأفيضوا من حيث أفاضوا، فأقيموا معهم واجبات الشرع العينية، وواظبوا معهم على سنن الجماعات.

﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ اطلبوا منه الستر على أحوالكم التي تفضّل عليكم بها، وخصّكم بمزيتها، فإن الظهور يقطع الظهور، إلا لكامل متمكن واحد الوقت، فكما أن الرسول مأمور بإظهار حاله، فالولي بضدّه مأمور بستر حاله، وإخفاء مواهب الله له، إلاّ لإخوته أهل طريقته[1].

2- في حضرة القرآن

قال الله تعالى: ﴿طه مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ (طه: 1-2)، يرى الأمير أن الآيتين نداء من الحق تعالى لحبيبه محمد ﷺ، متضمنا شفقة عليه وبشارة له ﷺ بأنه تعالى ما أنزل عليه القرآن؛ أي ما تجلّى عليه وكشف له، وأنزل عليه القرآن إنزال كشف وهي حضرة الجمع والوحدة المطلقة ليشقى. لأنه ﷺ كان إذا نزل من شهادة حضرة القرآن والجمع، إلى حضرة الفرقان والتعدّد، رأى أن شهود القرآن، نقص في مقام رسالته ﷺ، قادح في كمال عبوديته، فكان يحب ستر ذلك عنه ﷺ، وهو معنى الحديث النبوي الشريف: «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي فَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ مَائَةَ مَرَّةٍ[2]»، فهو غين أنوار، لا غين أغيار، فأخبره الحق تعالى أنه لا يشقى بهذا، بمعنى أنه لا ينقصه شيئاً من مقام رسالته ومرتبة وساطته، وخدمته وعبوديته [3]

(1) المواقف، **الأمير**، (1/ 312، 313).

(2) رواه مسلم، (2702).

(3) المواقف، **الأمير**، (1/ 406).

3- في النفس الإنسانية

يرى الأمير أن باب التوبة يُغلق بغروب شمسين: الشمس الحقيقية والشمس المجازية؛ "فأما الشمس مجازا فهي الكوكب النهاري، الذي هو معدن الأنوار الحسّية... وأما الشمس حقيقة وهي أصل الأنوار الحسية والمعنوية... فطلوعه من مغربه هو انكشافه وإشراقه من محل غروبه وانحجابه واستتاره، وهي النفس، فإنها حجاب شمس الحقيقة ومغربها، وطلوعها من مغربها الذي هو النفس، معرفتها منها: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ»، فصار المغرب مطلعا ومشرقا... وحينئذ يُغلق باب التوبة المعروفة عن هذا الذي طلعت عليه الشمس من مغربها، لأن التوبة رجوع، والذي طلعت عليه شمس الحقيقة من مغربها.. فإنه انكشفت له المعيّة الإلهية، والإحاطة الربانية، فلم يكن له من يرجع إليه.[1]" هذه المعاني استنبطها الأمير من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا﴾ (الأنعام:158).

وفي سياق حديثه عن النفس الإنسانية، يفسر الأمير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ (الإسراء:12): الليل كناية عن النفس العنصرية الظلمانية، والنهار كناية عن الروح العلوية النورانية، آيَتَيْنِ: علامتين على الموجد تعالى، ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أي أنه تعالى يرحم بعض عباده فيمحو آية ليلهم، وهي أنفسهم الظلمانية الشهوانية السفلية... ويجعل آية نهارهم مبصرة، وهي روحهم العلوية القدسية، وجعلها مبصرة هو بزوال قذى النفس الظلمانية.[2]"

4- في المملكة الإنسانية

يشبّه الأمير الملكات الإنسانية بالمملكة[3]، فيؤول قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ (هود:41): "قال نوح العقل الذي هو وزير الروح، ومدبّر مملكته الإنسانية، لما خاف هلاك مملكة الخليفة، عندما فار تنور الهوى بالإفساد، وإيقاع الاختلاف بالمملكة، لمن أطاعه واتبعه: اركبوا فيها؛ في سفينة الروح الجامعة بين الشريعة والحقيقة... ونادى نوح العقل ابنه الهوى... وكان الهوى في معزل عن الروح والعقل ﴿ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ (هود:42) أطع

(1) المصدر السابق، (1/ 328، 329).

(2) المواقف، **الأمير**، (1/ 355). رواه مسلم، (2702).

(3) وهو نفس ما ذهب إليه أستاذه الروحي محيي الدين بن العربي وصنّف في ذلك كتابه: "التدبيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية".

الروح وانقدْ له... قال الهوى: ﴿سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ (هود: 43)... فقال نوح العقل لكمال معرفته ونفوذ بصيرته ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ (هود:43)"[1].

5- في الحقيقة المحمدية

يستمد الأمير حديثه العرفاني العميق عن الحقيقة المحمدية في بُعديها الأنطولوجي والمعرفي من سورة النور، فيقرر أن محمدا ﷺ من حيث حقيقته هو "برزخ البرازخ ومظهر الذات ومجلى النور، الذي هو نور الأنوار وهي المكنى عنها بالزجاجة. وأما المشكاة فهي جميع الكائنات ما عدا الحقيقة المحمدية، فإن النور ما سرى من الزجاجة إلا بواسطتها، فالمصباح هو النور الوجودي الإضافي ظهرت به السموات والأرض، والزجاجة هي الحقيقة المحمدية، والمشكاة هي جميع الكائنات"[2].

6- في المجاهدة في سبيل المعرفة الإلهية

في حديثه عن المجاهدة ودورها في التحصيل المعرفي، يفسر الأمير قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ (الليل: 5-6) أي: "أعطى نفسه وسلّمها لمشتريها بعقد: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ﴾ (التوبة:111) فاستعملها فيما أمره به مشتريها، وحاد بها عمّا نهاه عنه مالكها.. فيما أراد مالكها ويرضاه، لا فيما يريده البائع ويهواه. وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى، هي الطريقة المثلى، طريقة الأنبياء وورثتهم... فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى، ونستعمله في الأسباب الموصلة إلى النجاة، والمعرفة بالله تعالى على طريق الأنبياء والأولياء، التي توصل إلى المشاهدة والمكالمة، لا على طريق العقلاء التي تقتضي البعد منه تعالى"[3].

والمعرفة التي يجاهد الصوفي نفسه لأجل نيلها هي –حسب الأمير- النعمة الباطنة التي أشارت الآية الكريمة: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً﴾ (لقمان:20)، فالنعم الباطنة هي "النعمة الممتزجة بالدنيا والآخرة، وهي بإرسال رسل الإلهام بالعلوم اللدنية، والمعارف الكشفية، والحقائق الغيبية، إلى قلوب ورثة الأنبياء، وهم العلماء العارفون المتحققون بالاقتداء بالأنبياء... وهذه العلوم والمعارف توجب السعادة الروحية والقلبية،

---

(1) المواقف، **الأمير**، (1/ 304، 305).

(2) المصدر السابق، (1/ 199، 200).

(3) المواقف، **الأمير**، (1/ 338).

ودوام التلذذ بشهود الجمال الحقيقي، والتمتع بشهود التجليات المتنوعة...وهذه النعمة... خاصة بخواص عباد الله.[1]"

وفي سياق حديثه عن المجاهدة، يرى الأمير أن الموت موتان: موت اضطراري عام؛ وهو الموت الطبيعي. وموت اختياري خاص ويقصد به حال الفناء عن كل ما سوى الله، وهو المأمور به في الخبر المشهور الذي دفع العارفين إلى خوض تجربة الفناء: «مُوتُوا قَبْلَ أَنْ تَمُوتُوا[2]»، "فمن مات اختيارا فقد قامت قيامته وصارت الأمور عنده إلى الله، فرجعت أمرا واحدا، ورجع إلى الله، فرأى الله بالله" [3].

هذا المعنى استلهمه الأمير من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران:169)، ففهم أن الآية تتحدث عن صنفين من المقتولين في سبيل الله؛ صنف قُتل في الجهاد الأصغر؛ جهاد الكفار، وهم شهداء المعترك. وصنف قُتل في الجهاد الأكبر؛ جهاد النفس، وهم شهداء المحبة. فيقول: "نهى تعالى بهذه الآية عن ظن موت المقتولين في سبيل الله. والمقتولون في سبيل الله أعم من المقتولين بسيوف الكفار، أعداء الدين، القتل الطبيعي الاضطراري. ومن المقتولين بصواعق المجاهدات والرياضات القتل الاختياري، من حيث إن كليهما تحلل تركيبه وفسد نظامه الطبيعي عينا وحسًّا في الأول، وحكما وكشفا في الثاني"[4].

كانت هذه بعض النماذج التأويلية العرفانية التي جمّل بها الأمير عبد القادر كتابه المواقف، وهي كثيرة لا يسعها هذا المقام، ولكن اقتصرنا على ذكر تأويلاته لأهم المواضيع التي تتبأور حولها مواقفه كالإنسان، والحقيقة المحمدية، والسير والسلوك، والمجاهدة في سبيل معرفة الله. والحقيقة أنها تأويلات لا ينكر جمالها كل من له حظ من الحس السليم، وتعكس جمال وجلال الجمال القرآني، وكذا جمال الممارسة الصوفية العرفانية في فهم النصوص القرآنية وتفسيرها وفق ما خُلق لأجله الإنسان من عبادة ومعرفة (الخلافة).

البعد الجمالي للتأويل العرفاني

لسنا نبالغ إذا حكمنا ابتداء بتميز وفرادة وجمال الرؤية الصوفية للقرآن العظيم، لأنها تنتقل من كونه كتابا مُنزلا للهداية، إلى كونه صفة إلهية والله تعالى كل يوم هو في شأن، أي أن القرآن هو تجل من تجلياته المتجددة وغير المتناهية، وهذا هو معنى "لا تنقضي عجائبه".

---

(1) المواقف، **الأمير**، (1/ 265).

(2) أخرجه العجلوني في كشف الخفاء، (2669).

(3) المواقف، **الأمير**، (1/ 416).

(4) المصدر السابق، (1/ 351).

إنها رؤية تعتقد بانتهاء تنزل القرآن لفظاً ومبنى مع وفاة محمد ﷺ، وبدوام تنزله ذوقاً ومعنىً على قلوب ورثته إلى يوم الدين. فيؤكد الأمير أن من أولياء الأمة المحمدية من يذوق تنزيل القرآن العظيم إلى اليوم، فإذا أراد الله تعالى إنزال شيء من القرآن على الولي يجد ما أنزل عليه عنده منظوماً، كما هو، من غير أن يسمع صوتاً، أو يرى واسطة، ولا شيئاً من الكيفيات، ولا يكون لهم هذا إلا حال صعقهم وغيبتهم عن العالم وعن أنفسهم، وهو المعبَّر عنه عرفانيا بالواقعة أو الإلقاء الغيبي، ويرى الأمير أنه قد يتكرر إنزال الآية بحسب ما يريد الله من وليّه، ويكون الولي أثناء التنزيل معصوما، لأن كلامه تعالى ﴿مَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾[1]. يقول في بداية تأويله لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾: "هذه الآية الكريمة أُلقيت عليّ بالإلقاء الغيبي مرارا عديدة لا أحصيها.[2]"

ومن جماليات الرؤية العرفانية للقرآن العظيم أنها مؤسسة على أصالة الحب في الوجود التي يشير إليها النص القُدسي: «كُنْتُ كَنْزًا مَخْفِيًا فَأَحْبَبْتُ أَنْ أُعْرَفَ فَخَلَقْتُ الخَلْقَ وَتَعَرَّفْتُ إِلَيْهِمْ فَبِي عَرَفُونِي[3]» فالصوفي يرى أن القرآن الكريم هو رسالة حب من المحبوب الأول والمعشوق الأبدي سبحانه وتعالى، يخاطب الله فيها الإنسان ويرشده إلى الطريق المستقيم الذي يوصله إليه تعالى، فالذي خلق المخلوقات بالحب وحبا في التعرف إليهم، هو من أرسل إليهم رسالة الحب (القرآن) لكي يتعرفوا عليه من خلالها، وبما أن الرسالة كُتبت بدافع الحب لابدّ وأن تُقرأ بالحب. يقول شمس التبريزي في احدى مقالاته: "أما بالنسبة للسالك في طريق الحق فكل آية من آيات القرآن هي خطاب ورسالة عشق، إنهم يعرفون القرآن وكيف يعرض الجمال ويكشف لهم"[4].

ولعل من أجمل ما يحققه التأويل العرفاني أنه يمنح الحرية الدينية في التعامل مع القرآن الكريم، حيث يفسح المجال لاستكناه النص القرآني بالنفاذ إلى باطنه والاستغراق في مضامينه التي تتبدّي للعارف المفسر خلف حُجب الألفاظ والكلمات، ذلك أنّ للآية الواحدة في القرآن، ومهما كانت مُحْكَمَةً -بل للكلمة الواحدة- عدّة مقاصد. وليس لأي كان قصر المقصد الإلهي على المعنى الذي يراه

---

(1) المواقف، **الأمير**، (1/ 395).

(2) المصدر السابق، (1/ 144).

(3) أورده العجلوني في كشف الخفاء، (2016)، وقال: قال ابن تيمية: لا يُعرف له سند صحيح ولا ضعيف، وتبعه الزركشي والحافظ ابن حجر والسيوطي و غيرهم، وقال القاري: لكن معناه صحيح مستفاد من قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي ليعرفوني كما فسرها ابن عباس.

(4) In Search of the Lost Heart; **William C. Chittick ; p9**.

دون غيره، ولا يحقّ لأي كان مصادرة تفسير القرآن من علماء المسلمين، واحتكاره في فئة معينة ومحدودة مكلّفةٍ بإنتاج تفسير رسمي –حسب تعبير د. سعاد الحكيم–، خاصة في ظل غياب تفسير نبوي يختم مهمة التفسير. لذا، نجد كبار المفسرين أثناء تفسيرهم يستأنسون بتفسيرات غيرهم، ويشيرون إلى عجزهم عن الإحاطة بالمعاني أحياناً بعبارة "والله أعلم"، ثم يتركون المعاني القرآنية مفتوحةً على تدبُّرٍ جديدٍ وفهمٍ جديدٍ. كما أشار الأمير: "وأهل طريقنا رضي الله عنهم ما ادّعوا الإتيان بشيء جديد، وإنما ادّعوا الفهم الجديد في الدين التليد"[1]. وأكد في موضع آخر أنّ "كل من قال في مسألة: هذا مراد الله تعالى لا زائد عليه، أو مراد رسول الله ﷺ لا غير، فقد أعظم الفرية" [2].

هذه السعة في التعاطي مع القرآن الكريم تجعله حيّا ومتجددا وباعثا للنظر والتدبر، كلٌّ يأخذ منه على قدره، وعلى حسب استعداده، وهذا هو معنى صلاحية القرآن لكل زمان ومكان، ولذلك "ترى العارفين يستخرجون العلوم والأسرار والأخبار بالمغيبات الآتية من القرآن. وجميع العلوم المتداولة مأخوذة من القرآن، ويهدي إليها هداية بينة. وجميع الثلاثة والسبعين فرقة يأخذون الأدلة والحجج لمذاهبهم من القرآن. وهذا من جملة وجوه إعجازه، وخروجه عن طوق البشر، كيف لا وهو تعالى قال: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأنعام: 38). فكل ما يطلق عليه اسم شيء فهو في القرآن العظيم، إما صريحاً وإما إشارة"[3] .

كما تتجلى أبعاد الجمال في التأويل العرفاني في كونه يقرأ النصوص القرآنية في اتجاه إنساني كوني، يسمح بتعدد القراءات وتنوع التفسيرات ويعترف بها جميعا، ويرى المؤتلف في المختلف، ويوفق بين الظاهر والباطن.

وللأمير كلام مطول حول هذا الموضوع، لا بأس أن نستأنس ببعضه، حيث يقول في تأويله لقوله ﷺ: «إِنَّ الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ»: "قد تكلم الناس على هذا الحديث قديماً وحديثاً، ذكر الإمام السيوطي ـ رضي الله عنه ـ منها نحو الأربعين قولاً، ومنها ما لم يبلغه بلا شك. وأكثر الناس عليه كلاماً على طريق أهل العرفان العارف بالله عبد العزيز الدباغ الفاسي فإنه أبدع وأتى بما لم يسبقه إليه غيره. وكل ما قيل في معنى هذا الحديث فصواب وأصوب، وحق وأحق، فإن الكل من عند الله تعالى، ومن تجلياته. إذ كلام الحق تعالى وكلام رسوله ﷺ بحر زاخر، ما له ساحل، فكل ما فهمه الخلق في كلام الله تعالى، وكلام رسوله ﷺ ... هو مراد ومقصود، وإن خالف

(1) المواقف، **الأمير**، (1/ 23).

(2) المصدر السابق، (1/ 275).

(3) المصدر السابق، (1/ 149).

الحق ظاهراً، فإنه كما قال: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ (البقرة: 26) فالضلالة مقصودة، وما يطلق عليه اسم الخطأ مقصود، فالكل عطاء الله. ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (الإسراء: 20)... وتختلف دلالات القرآن على متعلقات الأحرف، باختلاف وجوه قراءاته... والحق تعالى بجوده يفتح على كل واحد ويعطيه مما أحاط به القرآن من مدلولاته ما يستحقه، ويطلبه استعداده، إما هدى وإما ضلالة، إما رشداً وإما غياً، والإحاطة بجميع ما أحاط به القرآن محال، فلذا قال ﷺ: «فاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ» أي من مدلولاته والعلوم التي تضمنها... لأن القرآن كله يسر، كما قال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ (القمر: 17/ 22/ 32/ 40)... وقوله ﷺ: «وَلَا تَخْتَلِفُوا»، أي لا تجعلوا ما يفتح الله به على بعضكم في الفهم فيه خلافاً قادحاً في القرآن، وموجباتً للشك فيه، حتى يؤدي ذلك إلى الشك في أصل الدين. ولهذا اختلفت الصحابة –رضوان الله عليهم– وكذا من بعدهم من أهل الفضل والعلم، وما جعلوا ذلك اختلافاً في الدين، ولا كفّر بعضهم بعضاً. وما حصل للخلق كلهم من معلوماته تعالى التي هي متعلقات صفاته الأمهات الأصول إلا كما قال الخضر لموسى –عليهما السلام– «مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ» أي ما تعلق به علمي وعلمك من علم الله (أي معلوماته) «إِلَّا كَمَا نَقَصَ هَذَا العُصْفُورُ بِنَقْرَتِهِ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ» فهذا إشارة إلى ما أشار إليه هذا الخبر العظيم الشأن" [1].

ولا يقصد الأمير أن باب التأويل مشرّع لكل عابر سبيل، ولكنه يعني بكلامه من استوفى الشروط والضوابط التي سنّها علماء القرآن، وعلى رأسها الالتزام التام بالشرع ظاهرا وباطنا، والاعتراف بالمعنى الظاهري للنصوص القرآنية، والأمير نفسه رجل متشرع ومعروف بالتعظيم التام لمراسم الشريعة، والقيام بكمال الأدب، لذا غالبا ما يوظف عبارات احترازية أثناء تأويله كقوله: "هذا من باب الإشارة لا من باب التفسير"[2]و"من طريق الإشارة، لا من طريق التفسير" و"على طريق الاعتبار والإشارة" و" هذا لسان عموم من باب الإشارة"، و"من باب الإشارة بلسان الخصوص لا من باب التفسير"، كلها اعترافات منه بأن لهذا التأويل ضوابط أخرى ذات أبعاد ذوقية تنبجس عن أحوال الروح في تفاعلها مع الخطاب القرآني الذي تتجدد تجلياته بتجدد تلاوته، والذي ينبغي أن يُفسر تفسيرا تعبديا وخلقيا يُصلح الظاهر والباطن.

ومن جماليات التأويل العرفاني أيضا أنه يوسّع دائرة الاجتهاد، ويسمح بإنتاج فهم جديد لا يلغي القديم وإنما يمدّد حدقة الرؤية، وعليه يحكم الأمير على المجتهد أنه مأجور إن أصاب ومعذور

(1) المواقف، **الأمير**، (1/ 148– 150).

(2) يُنظر المواقف الآتية: (257، 283، 338، 358).

إن أخطأ إذا بذل كل وسعه في صدق الاجتهاد، لأن "الحكم عند الله في كل مسألة -اختلف علماء الشريعة فيها- واحد، والمصيب واحد لا بعينه، والمخطئ معذور"[1]. وهذا الحكم يشمل حتى المجتهد في الأصول الاعتقادية، -على خلاف ما قرره الأصوليون والكلاميون- حيث يشرح الأمير قوله ﷺ: «إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمْ فَاجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْر»[2]، فيقول: "الذي ورد به الوارد الإلهي: أن المجتهد إذا أصاب ما هو الحكم عند الله تعالى في النازلة، ووافق ما في نفس الأمر، كان له أجران، أجر الاجتهاد وأجر الإصابة، وإن أخطأ ما هو الحكم عند الله تعالى، وما وافق ما في نفس الأمر، كان له أجر واحد، وهو أجر الاجتهاد. فليست الإصابة إلا في الباطن، وهي موافقة ما عند الله تعالى في النازلة. وأما في الظاهر فالكل مصيب، لأن الشارع قرّر حكم كل مجتهد، ولو كان خطأ المجتهد في الظاهر، ما قرّره الشارع... فكل مجتهد مصيب في الظاهر، حيث أنه بذل وسعه وأدى ما كُلّف به، من طلب الحكم الحقّ في النازلة. وأمّا في الباطن فالمصيب واحد لا بعينه من المختلفين"[3].

هذا الذي ذهب إليه الأمير وشيخه ابن العربي[4]، يجعل الاجتهاد وما يتفرع عنه من احتمالات الوقوع على الصواب أو الخطأ، مجالا من مجالات الرحمة الإلهية بالأمة ورفع الحرج عنها والتوسعة عليها، وقد الْتفت الشيخان –ابن العربي والأمير- إلى ملحظ جدير بأن يُعدّ قاعدة متينة في مجال الاجتهاد، فحواها أن الشارع قرر حكم المجتهد سواء أصاب أو أخطأ، لأن المصيب قد أصاب الحكم الإلهي على التعيين، والمخطئ قد أصاب الحكم المقرَّر الذي أثبته الله له إذا لم يُوفَّق للوصول إلى الحكم الصحيح، فكلاهما شرعٌ مقرر [5].

هذه القاعدة من شأنها أن تفتح مجالا رحبا لثقافة الحوار بين المذاهب المختلفة، والمصالحة بينها، وهذا من شأنه أن يحد من نزعة الغلو والتعصب المذهبي، ويجفف ينابيع التطرف في الفكر الديني، وما يستتبع ذلك من انقسامات وصراعات تفتك بالإنسانية، يغذّيها غالبا تعصب رجال الدين، الذين يسعون لفرض فهم واحد ومطّرد للنصوص المقدسة.

خاتمة

---

(1) المواقف، **الأمير**، (2/ 270).

(2) أخرجه البخاري، (7352)، ومسلم (1716).

(3) المواقف، **الأمير**، (1/ 234).

(4) يُنظر: الفتوحات المكية، **ابن العربي**، (3/ 248، 249).

(5) التصوف شهودا وحبا وخطابا، **أمين يوسف عودة**، ص59.

إن التجربة الصوفية في التعامل مع القرآن العظيم فهما وتفسيرا، هي تجربة فردية وذاتية وذوقية بامتياز، ولا يمكن لها إلا أن تكون كذلك، والقارئ لمتونها يجد نفسه بإزاء نصوص فريدة من نوعها، ومتجددة بتجدد التجربة بذاتها، لأن الصوفي المستغرق في أحواله –كالأمير– لا يتكلم إلا عن ذوق، الأمر الذي يجعل نصوصه شديدة الخصوصية والخصوبة والثراء. وإزاء هذه الخصوصية، فإن القارئ يلزمه أن ينشئ علاقة وطيدة بالنصوص الصوفية، يتخلى قبلها عن مفاهيمه الجاهزة، ويتزوّد بحمولة عرفانية من الاصطلاحات الفنية. وإذا تيسرت له هذه العلاقة فإنه سيصاب بداء العشق للنص الصوفي وجماله، والإقامة فيه بالإنصات والتساؤل، بعد أن كان قبل ذلك ينكر عليه وفقا لمعطيات الفهم الظاهري.

إن المتتبع لنصوص المواقف عموما، والمتعلقة بتأويل القرآن الكريم خصوصا، يجذبه الحضور الأكبري بشكل بارز، حيث لا يخلو موقف –تقريبا– من الاستئناس بنص أكبري، أو الإشارة إلى لقاء روحي بين الأمير والشيخ بن العربي في واقعة من الوقائع الروحية، أو رؤيا تبشره أو تقرّه على تأويل معيّن أو تهديه سلوكا جديدا. الأمر الذي يشير إلى علاقة فريدة من نوعها جمعت بين الشيخين، اختصرها الأمير بوصف الشيخ محيي الدين بأنه خزانة معارفه، وأنه مصدر كل خير حصل له. والحقيقة أن العلاقة بينهما تتضمن عدة تفاصيل صوفية، منها: أن كلاهما من أهل الجذب الرحماني، وكلاهما يستمد معارفه عن طريق الإلهام والإلقاء الرباني، وغيرها من التفاصيل. ومع ذلك لم يكن الأمير مجرد مكرّر لتجربة الشيخ الأكبر، أو ناقل لتأويلاته الدينية، لاغٍ لتجربته الذاتية، بل يمكن وصفه بأنه باب الولوج إلى العالم الأكبري، ومجدد لمنهجه وشارح لمغاليقه، مع الاحتفاظ بخصوصية تجربته الصوفية، وتأويلاته العرفانية.

إن القرآن العظيم عند العارفين ليس فقط كلمات تُتلى ومعاني تُتدبر لتحقيق متعة ذهنية، بل إن كل حرف من حروفه وكل كلمة من كلماته وكل آية من آياته هي مطالع تجليات وشؤن إلهية، ومشاهد أسرار، وكنوز معارف ربانية غير متناهية.

لائحة المراجع

القرآن الكريم برواية حفص.

السنة النبوية المطهرة.

- إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد الغزالي، د.ط، دار الشعب، القاهرة، د.ت.

- التأويلات النجمية في التفسير الإشاري الصوفي، نجم الدين كبرى، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2009.

- التبيان في علوم القرآن، محمد علي الصابوني، ط2، مكتبة الغزالي، دمشق، ومؤسسة مناهل العرفان، بيروت، 1981م.

- التصوف شهودا وحبا وخطابا وأثره في روحنة الإنسانية والتقريب بين الأنا والآخر، أمين يوسف عودة، دار عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2016م.

- تفسير البحر المحيط، محمد بن يوسف أبو حيان الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل، د.ط، دار الفكر، بيروت، 1420 هـ.

- حقائق التفسير تفسير القرآن العزيز، أبو عبد الرحمان محمد بن الحسين السلمي، تحقيق: سيد عمران، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2001م.

- دراسات في تفسير النص القرآني، مجموعة باحثين، ط1، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، 2007.

- روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي، ضبطه وصححه: علي عبد الباري عطية، ط1، دار الكنب العلمية، بيروت، 2001م.

- الشرح القرآني لكتاب التجليات لابن العربي، عبد الباقي مفتاح، ط1، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2017م.

- طبقات الصوفية، أبو عبد الرحمان محمد السلمي، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت 2003م.

- العقل وفهم القرآن، الحارث بن أسد المحاسبي، تحقيق: حسين القوتلي، ط1، دار القمر، دمشق، 1971م.

- الفتوحات المكية، محيي الدين ابن العربي، ضبطه وصححه ووضع فهارسه: أحمد شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1999م.

- قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد، أبو طالب المكي، تحقيق: عاصم إبراهيم الكيالي، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005م.

- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة، د.ط، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.

- لطائف المنن، ابن عطاء الله السكندري، تحقيق: عبد الحليم محمود، ط3، دار المعارف، القاهرة، 2006م.

- مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، تحقيق: عيسى الحلبي، ط3، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1362ه.

- مؤلفات ابن عربي: تاريخها تصنيفها، عثمان يحي، ترجمة: أحمد محمد الطيب، ط1، دار الصابوني، ودار الهداية، القاهرة، 1992م.

- المواقف في بعض إشارات القرآن إلى الأسرار والمعارف، الأمير عبد القادر الجزائري، تحقيق وتقديم: بكري علاء الدين، ط1، دمشق: دار نينوى، 2014م.

- نصوص صوفية غير منشورة لشقيق البلخي، ابن عطاء الآدمي، النفري، حققها وقدم لها: بولس نويا اليسوعي، ط2، دار المشرق، بيروت، 1986م.

In Search of the Lost Heart: Explorations in Islamic Thought ; William C. Chittick ; sunny press ; New Work ;2012.